تجليات التّنوع الثّقافي واللغوي في الجزائر: الطوبونيميا أنموذجا

Manifestations of cultural and linguistic diversity in Algeria: Toponymy as a model

د. لعربي بن أعمارة*

الرّقم التعريفي للمقال: 010-002-014-1111/10.33705 DOI :

تاريخ الاستلام: 03 / 05/ 2021 تاريخ القبــول: 06 / 05/ 2021

ملخّص: تتضمن هذه الدراسة أهم مظاهر وتجليات التنوع الثقافي واللغوي في الجزائر، مع التركيز على موضوع الطوبونيميا. ذلك أن الجزائر تعتبر بمثابة قارة، تتميز بالتنوع والثراء، لكن في إطار من التعايش والانسجام، مما يشكل مصدر قوة للبلاد، ويؤهلها لتصبح دولة محوريّة في المنطقة المغاربية، أفريقيا والوطن العربي. وتشكل الطوبونيميا أو أسماء المعالم الجغرافيّة أبرز مجال يظهر فيه هذا التنوع والثراء، حيث قدمنا بعض النّماذج الطوبونيميّة من مختلف الولايات، والتي تحمل معاني ودلالات متنوعة. وقد توصلنا إلى أن الطوبونيميا باعتبارها إحدى المكونات الأساسيّة للتراث غير المادي، بإمكانها أن تشكل لبنة أساسيّة في دراسة وبحث حجم التنوع الثقافي واللغوي في الجزائر.

كلمات مفتاحيّة: التنوع الثقافي، التعايش اللغوي، الهويّة الوطنية، الطوبونيميا، الوحدة الوطنية.

Abstract: This study includes the most important manifestations of cultural and linguistic diversity in Algeria, with a focus on the topic of toponymy. Algeria is considered as a continent, characterized by diversity and wealth, but within a framework of coexistence and harmony, which constitutes a source of strength for the country and qualifies it to become a pivotal country in the Maghreb, Africa and the Arab world. Toponymy is the most prominent field in which this diversity and richness appears, as we have presented some toponymic models from different regions, which carry various meanings and connotations. We have concluded that toponymy, as one of the basic components of intangible heritage; can constitute a basic building block in studying and investigating the extent of cultural and linguistic diversity in Algeria.

Keywords: Cultural diversity, linguistic coexistence, national identity, toponymy, national unity.

مقدّمة: لقد أدى التطور الحاصل في تكنولوجيات الإعلام والاتصال إلى ربط مختلف بقاع العالم ببعضها، حيث أصبح الكوكب قريّة كونيّة صغيرة، ومع ظهور مختلف الوسائل المتطورة في التواصل والاتصال، عبر الأقمار الصناعيّة وغير ذلك فإن حدود الدول لم تعد مانعة، بل أضحت مائعة، سهلة الاختراق من طرف مختلف الفواعل، دولتيّة كانت أو غير دولتية، كما أنه في العصر الحالي، تراجع استعمال القوة الصلبة والحروب المباشرة بين الدول، مقابل فتح المجال أمام الحروب الجديدة التي تستعمل وسائل مستحدثة وأسلحة أكثر فتكا، بالأخص ما تعلق بالحروب الاقتصاديّة والثقافيّة.

* مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعيّة والثقافيّة CRASC، وحدة البحث في النّظم التسمويّة بالجزائر RASYD.

l.benamara@crasc.dz أو: larbibenamara@yahoo.fr (المؤلف المرسل)

لكن وبما أن الخلافات لا تزال قائمة، كما يقول صامويل هنتنجتون، فإن الصدام بين الحضارات هو الذي عوض المواجهة العسكريّة المباشرة بين القوى الكبرى، بالإضافة طبعا إلى ما يسمى الحروب بالنّيابة، وهي تلك الحسابات بين القوى العالميّة الكبرى التي يتم تصفيتها على مستوى أقاليم دول أخرى، وهو ما طرحه أيضا الأمريكي فوكوياما (ياباني الأصل) حول ما أسماه نهايّة التاريخ وختمh البشر، حيث اعتقد بنهايّة الحروب الكبرى وحسم الصراع الأيديولوجي لصالح الفكر الرأسمالي وللقيم اللبراليّة الغربية. وبالرجوع لأطروحة صامويل هنتنجتون في المقال الذي نشره في 1994، فإنه قد تحدث عن صراع قادم سيلي الحرب الباردة –التي كان أبطالها الأيديولوجيتين الرأسماليّة والاشتراكية– لكن أطرافه لن تكون الولايات المتحدة وروسيا والدول الدائرة في فلكهما، لكن هذه المرة سيكون صراعا حضاريا مستمدا من مبادئ كل حضارة على حدى، وأبرز الأطراف الأساسيين هم: الحضارة الكونفوشيوسيّة والإسلاميّة من جهة، والحضارة المسيحيّة الغربيّة من جهة ثانية، إضافة إلى حضارات أخرى تكون مساهمتها في الصراع أخف درجة على غرار الحضارة اليابانية، والأرثودوكسيّة بروسيا وغير ذلك. وقد بينت تطورات الأحداث في الساحة الدوليّة أن الطبيعة الصراعيّة بين الحضارات والثقافات في العالم هي التي تغلب على نمط العلاقات الدولية، بالرغم من كونها قد أخذت أبعادا جديدة ووسائل مستحدثة بعيدة عن القوة الصلبة والعدوان المسلح على الدول. والجزائر بحكم انتمائها للعالمين العربي والإسلامي، فإنها ليست بمعزل عن التطورات الحاصلة في الساحة الدولية، وعن إفرازات العولمة. لكنها في نفس الوقت تعتبر دولة قارة، ليس فقط من حيث مساحتها الجغرافية، وإنما كذلك من حيث تنوعاتها الثقافيّة واللغوية، مما يجعلها تتميز عن الأمم الأخرى، بعمقها الحضاري وموروثها الثقافي، ومن بين أبعاد هذا التنوع، نجد أسماء المعالم الجغرافيّة أو الطوبونيميا. ومن هنا، فيم تتمثل أبرز مظاهر وتجليات التنوع الثقافي في الجزائر؟ وما أهم خصاص الطوبونيميا أو الأماكنيّة في البلاد؟

ومن أجل الإجابة عن هذه الأسئلة سنعتمد في هذه الدراسة على المنهجين الوصفي والتحليلي بالأساس، كما سنستعين بالمنهج التاريخي، وذلك من أجل المقارنة عبر مختلف المراحل التاريخية.

وسنتبع خطة منهجيّة متشكلة من خمسة محاور أساسية:

1. مفهوم التنوع الثقافي واللغوي وأبرز تجلياته في الجزائر؛
2. مفهوم الطوبونيميا؛
3. أهميّة الطوبونيميا واستعمالاتها؛
4. الطوبونيميا في الجزائر كمظهر من مظاهر التنوع الثقافي بالجزائر؛
5. الحقل الطوبونيمي الجزائري بين الخصاص والتسيير القانوني.

أولا: التّنوعّ الثّقافي واللّغوي في الجزائر: المفهوم والتّجليّات: نص الاعلان العالمي لمنظمة اليونيسكو حول التنوع الثقافي في مادته الثانية: "في مجتمعاتنا المتنوعة بشكل متزايد، من الضروري ضمان التفاعل المتناغم أو المنسجم والاستعداد للعيش معًا من أجل الأشخاص والجماعات ذات الهويات الثقافيّة التي تكون في ذات الوقت متعددة ومتنوعة وديناميكية. تضمن السياسات التي تعزز دمج ومشاركة جميع المواطنين التماسك الاجتماعي وحيويّة المجتمع المدني والسلم. وبهذا، فإن التعدديّة الثقافيّة تشكل الرد السياسي على حقيقة التنوع الثقافي..."[1]

(Déclaration universelle de l'UNESCO sur la diversité culturelle, 2001). انطلاقا مما ورد أعلاه يظهر جليا مدى أهميّة التنوع الثقافي في المجتمعات، فبإمكانه أن يصبح مصدرا للقوة ونقطة ارتكاز للاقتصاد، وعاملا إيجابيا للوحدة، لكن مع ضرورة وجود تعدديّة ديمقراطيّة وإطار قانوني يرسخ التنوع والتعدد في إطار الوحدة والتماسك المجتمعي للدولة. يشكل مفهوم التنوع أو التعدد الثقافي أحد أهم المفاهيم المنتشرة في الدول الحديثة، ذلك أن الوحدات السياسيّة أو الدول قد أضحت متكونة من مجموعات ثقافيّة ولغويّة ثريّة ومتنوعة، وهذا ما يؤدي بعديد الانشغالات لتطفو إلى السطح، أهمها يتمحور حول طبيعة العلاقة بين الوحدة في إطار التنوع والتعدد، والانسجام في سياق مراعاة الاختلاف. ويتحقق ذلك شريطة وجود مبدأ المواطنة كضامن لاحترام الاختلاف والتوع الثقافي، وفي ذات الوقت كداعم أو رابط لعلاقة الانتماء المشترك للوطن[2](نبيلة بن عائشة، 2021). ولقد تبلور الاهتمام بهذه المواضيع منذ معاهدة ويستفاليا لسنة 1648 التي أسست لظهور الدولة القوميّة أو الوطنيّة (Etat Nation) أوروبا بشكل أساسي، حين تم دمج المكونات الفرعيّة للمجتمع، من أجل خلق هويّة مشتركة للدولة. لكن مع منتصف القرن العشرين، بادرت دول الجنوب من أجل التحرر من هيمنة القوى الاستعمارية، فبعد استرجاع هذه الدول لسيادتها، ظهرت بعض المشاكل التي أدت أحيانا إلى حروب أهلية، وهذا بشكل أساسي في أفريقيا جنوب الصحراء، التي تتشكل من العديد من الأعراق والاثنيات. وهو ما أدى لاحقا إلى بروز ما يسمى بنظريات بناء الدولة. وهذا ما يؤدي بنا إلى التطرق للهويّة الوطنيّة في إطار التنوع الثقافي، ذلك أن الهويّة مسار (Processus) وهي أيضا معطى تاريخي يتم بناؤه، هدمه وإعادة بنائه وفقا للظروف السياسية، الاقتصاديّة والاجتماعية، محليّة كانت أو إقليمية. والهويّة كذلك تعبر عن فعل التمايز، فأنت تكون "أنت" يعني أنك تختلف عن الآخر، سواء كان هذا "الآخر" خصما، منافسا،... حقيقيا أو تقديريا، فالبحث عن هويتنا يعني السعي للحصول على أجوبة لأسئلة معينة من قبيل: من نحن؟ ما الذي يميزنا عن الآخرين؟ ما الذي يشكل خصوصيتنا، شخصيتنا وأصالتنا؟[3] (Abou, 2009). والجزائر دولة ثريّة من حيث التراث المادي وغير المادي، وذلك بالنّظر إلى تاريخها الحافل وعمقها الحضاري. فالدين الإسلامي هو الغالب في المجتمع، واللغة العربيّة بمختلف لهجاتها هي التي وحدت الجزائريين، بالإضافة إلى الأمازيغيّة التي تستعمل في عديد المناطق. وقد تمكنت هذه الدعامات الثلاث من التمازج والتلاحم مع بعضها. يعتبر الأستاذ "محمد سي بشير" أن الهويّة *"تجمع رموزا، خصائص، مبادئ وعقائد تجعل أمة ما تشعر بالاختصاص بمصادر الهويّة الكبرى وأعمدتها (مثل الإسلام الذي يشكل أساس الهويّة الكلّيّة بالنّسبة للمجتمعات العربيّة والإسلاميّة مثلا)، وبالتمايز عن الغير وعن الآخر دون إغفال أو انعزال، ويكون المجتمع بالتالي، قد حدد إطارا مرجعيا عاما لتجديد وتجدد الهويّة وإعادة إنتاجها قصد تشكيل روافد معرفيّة ووجدانيّة ورمزيّة وسلوكيّة وحضاريّة تضم المحددات: التاريخية، الجغرافية، اللغوية، الجمالية، الثقافية".*[4] (سي بشير، 2015). وأمام مختلف التحديات والرهانات التي تواجه الجزائر، من الضروري إعطاء المزيد من الأهميّة للهويّة الوطنية، وذلك عن طريق تحديد دقيق لمكوناتها دون تهميش أو إقصاء، وجعل المواطن يعرفها لكن أيضا يتمسك بها وينقلها للأجيال الصاعدة، فحينما تعيش دولة معينة مشكل هويّة فإن بقاءها في المستقبل هو محل نقاش، لكن أيضا طريقة تحديدها

لاستراتيجيّة الأمن القومي، لأن التجارب الميدانيّة توضح أن الهويّة تشكل المرجع المحدد لمعرفة طبيعة مصالح الدولة وطموحاتها، وكذلك مكانتها بين الدول الأخرى. ومن خلال ما سبق، تلعب الطوبونيميا أو أسماء المعالم الجغرافيّة دورا محوريا في التعريف بالهويّة الوطنية.

ثانيا: مفهوم الطّوبونيميا: الطوبونيميا (Toponymie) هي كلمة مشتقة من الإغريقيّة ومتكونة من: Tépos التي تعني "مكان"، وénoma بمعنى "اسم"[5] (Yermeche, 2018)، وبالتالي تصبح ترجمة هذا المصطلح "اسم المكان". وتتعدد الترجمات التي قامت بنقل هذا المصطلح إلى اللغة العربية، بين من اكتفى بجعله علم الطوبونيميا، ومن ارتأى ترجمة المعنى ليصبح: علم أسماء المعالم الجغرافيّة أو المواقعيّة أو الأماكنية. وتهتم بهذا العلم بشكل أساسي كل من الدراسات اللسانيّة والتاريخية، بالإضافة أيضا إلى علوم الأركيولوجيا، والجغرافيا. والبنيّة المرجعيّة للأعلام الجغرافيّة هي البنيّة الثقافيّة العميقة التي استلهمت منها المفاهيم والتصورات والرؤى الفلسفيّة جذورها. والتعمق في ضبط البنيّة الداخليّة للاسم هو تعمق في عناصر الهويّة الثقافيّة للمكان[6] (محمد البركة، 2012)، ومن هنا فإن أسماء المعالم الجغرافيّة ليست مجرد أسماء، لكن تحمل في طياتها معاني دالة وتراثا تاريخيا وثقافيا يمتد أحيانا لآلاف السنين. وفي هذا الصدد، فإن أسماء الأماكن تحوي في طياتها على جملة من المعاني التي تصف المكان، أو تذكر إحدى مميزاته، أم كذلك تؤرخ لحادثة احتضنها، أو لمظهر معين. وأهم عنصر في التسميّة هو توافق النّاس وتداولهم لها. وقد يحدث تغيير لاسم المعلم الجغرافي لعدة عوامل، سواء ما تعلق بتغيير البنيّة المرجعيّة النّاضرة لاسم المكان، أو بحدوث حدث غالب حواه المكان[7] (محمد البركة، 2012)، وبالإضافة إلى التغيير، قد يحدث أيضا تحوير أو تحويل في طريقة النّطق، وذلك بحدوث تداخل بين الثقافات واللغات، وهو ما يكون نتيجة للهجرات البشرية، للحملات العسكريّة وكذلك للحركة والتطور المستمرين للغات المحلية.

وتنقسم الطوبونيميا إلى قسمين أساسيين:

1. **الماكروطوبونيميا:** وهي التي تركز أساسا على دراسة أسماء الأماكن الواسعة، وتنقسم إلى ثلاثة أصناف رئيسية.
   أ. أسماء التضاريس (Oronymes) بمختلف أنواعها، كالجبال مثلا.
   ب. الطوبونيميا المائيّة (hydronymie) التي يقصد بها أسماء المجاري المائيّة المختلفة، كالوديان.
   ت. الأدونيميا (Odonymie) التي تتمثل في أسماء الطرق والمسالك وغيرها.
2. **الميكروطوبونيميا:** تتعلق في أسماء الأماكن محدودة المساحة، على غرار أسماء الحقول، القطع الأرضيّة وما إلى ذلك[8] (Yermeche, 2018).

ثالثا: أهميّة الطوبونيميا واستعمالاتها

1. **أهميّة علم الطوبونيميا:** بالرغم من عدم تصنيف الطوبونيميا في أغلب الجامعات كعلم قائم بذاته، إلا أن هذا التخصص لديه أهميّة جد معتبرة في العديد من المجالات، وأحيانا لا تظهر تلك الأهميّة بشكل واضح، نظرا لأن دراسة أسماء المعالم الجغرافيّة تنتهج مبدأ الاعتماد المتبادل مع مختلف العلوم الانسانيّة والاجتماعية: الأركيولوجيا، الأنثروبولوجيا، علم التاريخ، الجغرافيا، وغيرها من العلوم.

ومن بين أوجه أهميّة هذا العلم، هو كون أسماء الأماكن تسهم في "الحفاظ على الشخصيّة الثقافيّة للمجموعة البشريّة التي تقطن مجالا جغرافيا معينا"[9] (آيت عبود، 2007)، مما يجعل الطوبونيميا كإحدى مكونات الموروث الثقافي غير المادي للجماعات البشرية. حيث يعتبر هذا الأخير في جانبه المتعلق بالطوبونيميا أو أسماء الأعلام الجغرافيّة من أبرز معالم ومقومات الهويّة الوطنية. تظهر أيضا أهميّة علم الطوبونيميا، في كونه أحد العلوم المساعدة على إعادة بناء وتركيب عناصر الهويّة الحضاريّة والثقافيّة لمختلف المجالات الجغرافيّة وتفاعلاتها عبر التاريخ. وفي هذا الصدد، يجدر القول إن البحث في التراث، بالأخص غير المادي منه، بغيّة الإحاطة به فهما واستيعابا، وتسخيره لصالح الهويّة الوطنية، هو أحد أهداف البحث في علم الأعلام الجغرافية.ومن بين تجليات أهميّة أسماء المعالم الجغرافيّة كذلك، نجد علاقتها الوثيقة بالوثائق الشخصيّة للأفراد في جل بقاع المعمورة، حيث أنها حاضرة في كل الوثائق الشخصيّة التي ترافق الفرد منذ الميلاد إلى غايّة الوفاة، ذلك أنها تظهر أساسا في: مكان الولادة، مكان الإقامة، مكان إصدار الوثيقة، مكان الدراسة، ...الخ والتي من بينها: جواز السفر، بطاقة الهويّة الوطنية، رخص سياقة المركبات، ...الخ[10] (الزقرطي، 1997).

وهكذا بالتالي تظهر بوضوح تلك العلاقة الوطيدة الموجودة بين أسماء المعالم الجغرافيّة وكل من:

- الوثائق الشخصية؛
- وسائل الإعلام والثقافة والتعليم؛
- التاريخ؛
- صناعة الخرائط[11] (الزقرطي، 1997).

تساعد الطوبونيميا على فهم بعض الحلقات المفقودة من التاريخ، ذلك أنه من غير الممكن تصور تاريخ بدون مكان، حيث أن المكان "هو المجال المستوعب لحركة الانسان في الزمان عند تفاعله مع الفكرة"، فدراسة الطوبونيميا والبحث في معاني ودلالات أسماء الأعلام الجغرافيّة تشكل خطوة لفهم سيرورة التاريخ، فالمكان يقرب فهم طبيعة الحركة وآثاره[12] (محمد البركة، 2012)، وهنا تظهر بوضوح أهميّة علم أسماء الأماكن الجغرافيّة في حفظ الهويّة التاريخيّة والثقافيّة للأماكن، وجعلها في متناول الباحثين في مختلف التخصصات عند الرجوع بالبحث والتنقيب عن أصل، مدلول ومعنى اسم المكان. وفي السياق ذاته، للطوبونيميا دور محوري ورئيسي في تحقيق وقراءة العديد من النّصوص الجغرافيّة والتاريخية، أين تكثر الأعلام الجغرافيّة المذكورة في تلك النّصوص والمخطوطات، وأحيانا لا يمكن فهم هذه الأخيرة إلا عند ضبط وفهم تلك الأعلام ودلالاتها، أي أنها تشكل مفاتيح لفهم النّصوص[13] (محمد البركة، 2012)، وهكذا تتعدى أهميّة هذا العلم حفظ أو صيانة تاريخ المكان، إلى مساعدة المؤرخين على فهم وتفسير محتوى النّصوص التاريخيّة والمخطوطات القديمة. ذلك لأن البحث في أصول، معاني ودلالات أسماء المعالم الجغرافيّة يسهم في فهم وإدراك تفاصيل الأحداث التاريخيّة والوقائع الاجتماعيّة الحاصلة في مجال أو رقعة جغرافيّة محددة.

2. **استعمالات الطوبونيميا في الماضي والحاضر:** بالإضافة إلى كل ما ذكرناه أعلاه حول أهميّة الطوبونيميا، سنتطرق في هذا العنصر بإيجاز إلى أبرز استعمالات علم أسماء المعالم الجغرافيّة التي لا يمكن

حصرها في مجال معين، ذلك أن للطوبونيميا أهميّة اقتصادية، استراتيجيّة (أو عسكريّة أساسا)، سياحية، سياسية، اجتماعية، ثقافيّة (حفظ التراث، تقديمه وتعريفه للأجيال وللقادمين من مختلف ربوع الأرض) وغير ذلك.

أ. **المستوى الاستراتيجي أثناء الحروب والنّزاعات المسلحة:** في حالات النّزاعات المسلحة في الماضي، بالأخص في الجنوب الجزائري، فإنه من أبرز دواعي النّجاح في المعركة هو المعرفة الجيدة للأرض، لمختلف الطرق والمسالك، لأماكن تواجد الماء والسيطرة عليها، الأماكن المفتوحة، والمحصورة بين الجبال والهضاب التي يتم تفاديها أحيانا، استغلالها لنصب الكمائن ومفاجأة أحايين أخرى، ...الخ. وفي كل ذلك، وأثناء التخطيط والتحرك وإسداء التعليمات والأوامر، والتي تكون أحيانا في شكل رسائل مكتوبة أو شفوية، فإن الحجر الأساسي هو أسماء المعالم الجغرافية، وأي خطأ في تلك الأسماء، يعني خسارة المعركة والهزيمة المؤكدة. هذا إذا علمنا أنه في الجنوب بشكل عام توجد مساحات واسعة جدا قاحلة، مقابلها واحات خصبة تتوفر على مقومات الحياة، وكل الخيرات، حيث كانت القبائل والجماعات في صراعات مستمرة من أجل بسط سيطرتها على هذه الأماكن.

ب. **القوافل التجارية:** لطالما كانت القوافل هي التي تربط بين مختلف المناطق والمدن الصحراوية، بالإضافة طبعا إلى ربط الصحراء الكبرى بالساحل الأفريقي ومدن الشمال. وتنقل القوافل يعتمد بالأساس على الجمال، وأثناء الرحلات، يتم حفظ مختلف الطرق المؤديّة إلى جل المدن والأسواق، معرفة الواحات وأماكن تواجد المياه العذبة، أماكن الاستراحة، إلى غير ذلك. وكل هذا بالاعتماد على أسماء الأماكن، التي يحفظها التجار ومرافقيهم بدقة. والأمر لا يختلف كثيرا في الوقت الراهن بالنّسبة لشاحنات الوزن الثقيل التي تتنقل لسافات بعيدة في الصحراء. والحديث عن القوافل التجاريّة التي تنقل مختلف المنتجات الفلاحية، المعادن الثمينة، ومختلف البضائع الثمينة، .. كل هذا يعني وجود قطاع الطرق (مثلما هو موجود في مختلف الأماكن والأزمنة وإن اختلفت أساليبها وتسمياتها)، هؤلاء الذين يحفظون جيدا أماكن مرور القوافل، بأسمائها طبعا، ويتحينون الفرص للانقضاض على القوافل غير المحصنة جيدا، بالأخص في فترات غياب الاستقرار.

ت. **الرعاة، الصيادون والسياح:** هؤلاء أيضا يتنقلون لمسافات بعيدة، وأحيانا في مناطق صعبة وغير مألوفة بالنّسبة لهم، وهنا تتعدد الأخطار التي تواجههم لتصل حتى الموت. ومن هنا فإنهم يتنقلون بالاعتماد على خرائط ذهنيّة محفوظة في ذاكرة بعضهم، حيث يوجد في كل منطقة، وكل مرحلة أقليّة من النّاس، عارفين جيدا بخبايا الصحراء، معتادين على الترحال، وتحديد المواقع في كل الحالات (الرياح، الزوابع الرملية، الليل، ...) والذين يسمونهم حاليا بالمرشد أو الدليل السياحي. وعند التأمل جيدا في تلك المهمة فإن الركيزة الأساسيّة لهم هي أسماء المعالم الجغرافية، التي يحفظونها عن ظهر قلب.

ث. **الأنشطة الاقتصاديّة الجديدة** (النّقل، آبار النّفط وحقول الغاز الطبيعي، مناجم المعادن المختلفة في الصحراء الكبرى، ...الخ): تعتبر الصحراء من أغنى المناطق بالموارد الباطنيّة غير المتجددة أو النّاضبة، سواء تعلق الأمر بالمحروقات، أم المعادن وغير ذلك. ولطالما تطلب الحصول على تلك الموارد والثروات جهودا كبيرة، بدايّة بالبحث والاستكشاف، وصولا إلى الاستغلال، مع الاعلم أن هذا الأخير يتطلب الكثير من

الجهود والوسائل، بما في ذلك ما يطلق عليه بقواعد الحياة في الصحراء (les bases de vie) والتنقل في مناطق قاحلة، معزولة، وفي مساحات واسعة. استطاع الانسان التعامل مع مجمل تلك الظروف بالاعتماد على أنظمة محكمة لتسميّة المعالم الجغرافيّة بدقة، والتمكن من التمييز بين الأماكن، بالرغم من التشابه الكبير وصعوبة التفريق بينها، ذلك أنها تمتد أحيانا مساحات رمليّة لكيلومترات...الخ.

رابعا: الطوبونيميا في الجزائر كمظهر من مظاهر التنوّع الثقافي بالجزائر: هنالك العديد من الحضارات التي تعاقبت على الشمال الأفريقي بشكل عام، والجزائر على وجه التخصيص، تركت بصماتها من خلال أسماء الأماكن (الأمازيغية، الرومانية، الإسلامية، العثمانية، الفرنسية...)، بناء على ذلك فإن الثراء الطوبونيمي بشكل عام يوثق أو يؤرخ للحضارات المتعاقبة على المنطقة، بالتالي فهو شاهد على أهميتها الجيوسياسيّة والاقتصادية، إذ كانت تتوسط العالم القديم (قبل اكتشاف الأمريكيتين)، فأسماء المعالم الجغرافيّة دليل على قدم وعراقة الجزائر وعمقها الحضاري وثقل موروثها الثقافي. تحتضن الجزائر المركز الجهوي لصون التراث الثقافي غير المادي في أفريقيا (Centre Régional pour la Sauvegarde du Patrimoine Culturel Immatériel en Afrique) تحت رعايّة اليونيسكو. وهذا المركز هو الأول من نوعه في القارة الأفريقية، والسابع عالميا، بعد كل من: الصين، اليابان، كوريا الجنوبية، إيران، البيرو ودولة بلغاريا. وانطلاقا من هنا فإن الجزائر مؤهلة لتكون دولة محوريّة في الفضاء الأفريقي، العربي والمتوسطي.

ولقد تم اختيار الجزائر لتحتضن هذا الصرح العلمي والثقافي من لدن منظمة اليونيسكو، كاعتراف صريح بجهودها الدوليّة لصون التراث غير المادي في أوقات السلم والحروب المسلحة، ولجهودها كذلك في بلوة الاتفاقيّة الدوليّة المتعلقة بصون التراث الثقافي غير المادي المعتمدة في العاصمة الفرنسيّة باريس يوم 17 أكتوبر 2003.

مبدأ تسميّة المعالم الجغرافية: تتنوع وتتعدد مبادئ تسميات المعالم الجغرافية، ومن ذلك نجد ما تعلق بالصفات أو المميزات الجغرافيّة للمكان، أسباب دينيّة (إله، نبي، قديس، شيخ، صحابي، ...)، نسبة إلى أشخاص أو عشائر أو قبائل أو شعوب، نسبة إلى أحداث، وأخيرا نسبة إلى حيوانات أو نباتات أو أجزاء منها: قرن، رجل، راس، وغيرها[14]. (موسى الزقرطي، 1997).

وهنا سنحاول تقديم بعض الأمثلة عن هذه الأسماء:

1. **تضاريس:** جبل عنتر (بشار)، إيغيل علي (تسميّة أمازيغية، بمعنى مرتفع عال، تقع في ولايّة بجاية).
2. **مناخ:** نسبة إلى الحرارة المرتفعة، البرودة، الهواء الطيب: مثلا غليزان التي تعني الهضبة عاليّة الحرارة (إغيل إزان)، وهذا لمناخ هذه المدينة في الصيف، وادي البارد في ولايّة سطيف (نسبة إلى خاصيّة البرودة).
3. **جهة:** الزاويّة الفوقانية، والزاويّة التحتانيّة (أماكن موجودة في تاغيت، ولايّة بشار).
4. لون الأرض: مثلا جبل لحمر وجبل لزرق في ولايّة بشار، عين الحمرا في سطيف.

5. **جيولوجيا أو طبيعة الأرض:** مثلا أزاغار، وهي تسميّة موجودة بكثرة في تيزي وزو، التي تعني الأرض المستويّة الصالحة للزراعة، أسياخ أومالو بتيزي –وزو (مكان في غابة ببلديّة تيزي نتلاثة، تتعرض لانجراف التربة).

6. **ثروة معدنية:** منطقة واد الفضة في ولايّة الشلف، عين الذهب في تيارت، عين النّحاس في قسنطينة.

7. **مياه:** وفرة أشكال معينة من المجاري أو مسطحات مائية: واد السمار بالجزائر العاصمة، بير غبالو في ولايّة البويرة، تامدا أوجلميم (بركة في جبال جرجرة)، عين عسل في الطارف.

8. **وجود نوع حيواني** في المنطقة: فيض النّعام ومنطقة قصر الطير في سطيف، واد النّاموس (النّعامة وبشار)، سور الغزلان بالبويرة.

9. **نسبة إلى فصيلة نباتية:** واد الرتم في بشار، عين الديسة في ولايّة سطيف.

من خلال هذه الأسماء التي تم عرضها من مختلف جهات الجزائر، يظهر حجم التنوع اللغوي والثراء الثقافي في الجزائر، هذا التعدد والتجانس تقدمه لنا الطوبونيميا بشكل واضح، أين يتبين التعايش الموجود بين مختلف اللغات والثقافات، والتي تظهر في أسماء المعالم الجغرافية.

خامسا: الحقل الطوبونيمي الجزائري بين الخصاص والتسيير القانوني: تتميز الطوبونيميا في الجزائر بالعديد من المميزات والخصائص، والتي هي في مجملها نتيجة للتنوع الثقافي واللغوي الذي تزخر به البلاد. ولقد ذكرنا في المحور السابق العديد من الأمثلة حول أسماء الأماكن، التي تتميز بالثراء، التنوع والاختلاف، ولكن أيضا تتميز بالتعايش اللغوي، أين نجد طوبونيم مركب من اسمين أحدهما بالعربيّة والآخر بالأمازيغية. والملاحظ أنه بالنّسبة للأسماء القديمة، أو التي جاءت باللغات غير العربية، أنه مع الوقت ومع تعميم العربية، جرى تعريب بعضها أو تحويرها وتغييرها لتتناسب مع طريقة النّطق بالعربية. فكثيرا ما تم تغيير طريقة نطق الطوبونيم من أجل تيسير استعماله في المجتمع[15] (محمد البركة، 2012). وهذا التطور في طريقة نطق أسماء الأماكن قد حدث بفعل قدم الأسماء، والحضارات التي توالت على الجزائر، بالإضافة إلى ما يسميه المختص في الطوبونيميا فريد بن رمضان بكون المجتمع الجزائري هو ذو تقاليد شفويّة يعتمد على المنقول بشكل شفهي[16] (Benramdane,2002)، وهذا ما من شأنه تبرير عدم استعمال المجتمع للتسميات الجديدة، أو إعادة التسميات التي تعتمدها الهيئات الرسمية، بل نجدها غالبا ما تحتفظ بالتسميات القديمة والمتواترة. وفي ذات السياق تم الاطلاع على بعض أسماء الأماكن التي كانت بلغات أجنبيّة (التركيّة والفرنسيّة أساسا)، تعرضت طريقة نطقها للتعديل والتكييف لتتوافق مع اللغة التي يستعملها سكان المنطقة المعنيّة (عربيّة أو أمازيغيّة بمختلف تفرعاتها). إذ نجد على سبيل المثال لا الحصر في مدينة بشار اسم مكان أطلقته سلطات الاحتلال الفرنسي: («Bidan deux 2») الذي تم تكييفه مع أساليب النّطق بالعربيّة ليصبح بيداندو إلى يومنا هذا. وكل هذا يؤكد الأهميّة الكبيرة التي تكتسيها دراسة أسماء المعالم الجغرافيّة كعلم قائم بذاته في الجامعات المراكز البحثيّة بالجزائر. أما فيما يتعلق بالجوانب التشريعيّة الطوبونيميّة في الجزائر، فإنه وبعد الاطلاع على مختلف المراسيم والقوانين التي تنظم كيفيّة تسميّة الأماكن والمباني والمؤسسات العموميّة أو إعادة تسميتها، منذ استرجاع السيادة الوطنيّة في 1962، فلقد أضحى حاليا المرسوم الرئاسي الأخير الذي صدر حول الموضوع، بتاريخ 05

جانفي 2014، والذي ينص في مادته رقم 40 (ما قبل الأخيرة)، أنه " يلغي جميع أحكام المرسوم الرئاسي رقم 97-104 المؤرخ في 05 أبريل 1997، والمتعلق بتسميّة الأماكن والمباني العموميّة أو إعادة تسميتها"[17] (مرسوم رئاسي، 2014)، هو الذي ينظم تسميات الأماكن في الجزائر إلى وقتنا الراهن، ويتكون هذا المرسوم الرئاسي من 41 مادة. وقد جاء في المادة التاسعة من هذا المرسوم الرئاسي أنه "تعطى الأولوية، عند اقتراح التسميّة أو إعادة التسمية، لكل ما له علاقة بالمقاومة الشعبيّة والحركة الوطنيّة وثورة التحرير الوطني ورموزها وأحداثها"[18] (مرسوم رئاسي، 2014). على غرار هذا المرسوم الرئاسي، تؤكد مختلف النّصوص القانونيّة المتعلقة بتسميّة الأماكن والمباني العموميّة والمؤسسات أو إعادة تسميتها أولويّة أسماء شهداء الثورة التحريريّة ومختلف الأحداث التاريخيّة المرتبطة بها، ومن دواعي هذا التوجه هو حفظ الذاكرة الوطنيّة وتمجيد قيمة التضحية، حيث ضحى هؤلاء بالنّفس والنّفيس من أجل الحريّة واستعادة السيادة الوطنية، وبالتالي، جعلهم نماذج يقتدى بها من طرف الأجيال الحاضرة والمستقبلية[19] (Guedjiba, 2017). لكن، إلى جانب ذلك، ينبغي أيضا الاعتماد في تسميات الأماكن على بقيّة مكونات التراث الفكري والثقافي للأمة الجزائرية، بما في ذلك أسماء العلماء، الأدباء، الفنانين وغيرهم. وهنا ينبغي التذكير بأن الجزائر قد مرت بعشريّة سوداء (1990-2000)، وقد تمكنت لوحدها من التغلب على آفة الإرهاب والتطرف، مقابل ثمن باهظ من الخسائر الماديّة والبشرية، وهنا ينبغي التفكير في رد الاعتبار للأرواح التي فقدتها الجزائر من أجل استعادة الأمن والاستقرار، وهم ضحايا المأساة الوطنية، المنتمين لمختلف الأجهزة الأمنيّة والمدنيين، تلك الأسماء التي وجب تخليدها عرفانا بما قدمتها للوطن، وذلك عن طريق تسميّة الأحياء، الشوارع، ومختلف الأماكن والمباني العموميّة بأسمائهم.

خاتمة: يشكل كل من العمق التاريخي والثقل الحضاري والثراء الثقافي للجزائر أحد أهم العوامل التي جعلت من الأمة الجزائريّة تختلف عن غيرها من الأمم، حيث ترابطت جل مكونات الهويّة الجزائريّة فيما بينها لتشكل لبنة قويّة قوامها التنوع والوحدة. وأبرز مظهر لهذا الثراء والتنوع يتجلى في الطوبونيميا أو أسماء المعالم الجغرافية، التي تظهر فيها بوضوح ركائز الهويّة الوطنيّة الثلاث التي ينص عليها الدستور الجزائري، والمتمثلة في كل من الإسلام، العروبة والأمازيغية. حيث تتعدد هذه الأسماء، سواء من حيث اللغة، الأصل، المدلول، ولكن أيضا فيما تعلق بدواعي التسمية: من بينها ما هو مستوحى من طبيعة المكان، الألوان السائدة فيه، الثروات أو المعادن، أنواع حيوانيّة أو نباتية، إلى غيرها من المعطيات التي يتم على أساسها إطلاق التسمية. وقد توصلنا في هذه الدراسة من خلال بعض الأمثلة المقدمة من مختلف مناطق الجزائر إلى وجود تنوع كبير في اللغات (العربية، الأمازيغيّة وحتى الفرنسيّة وغيرها)، بالإضافة طبعا إلى تنوع في المعاني والدلالات، حيث ينبغي منح الطوبونيميا المزيد من الأهميّة من خلال تصنيفها من دعائم التراث الثقافي غير المادي بالجزائر التي تستدعي البحث والدراسة، مما يسمح بصون هذا التراث وتثمينه.

قائمة المراجع:

باللغة العربية:

آيت بود محمد، الأعلام الجغرافيّة بالمغرب، ثاويزا، عدد 122، يونيو 2007.

بن عائشة نبيلة، التنوع الثقافي والمواطنة، مجلة البحوث والدراسات العلمية، المجلد 15، العدد الأول، جانفي 2021.

البركة محمد، وآخرون، الطوبونيميا بالغرب الإسلامي، إسهام في ضبط أسماء الأماكن. مقدمات في الفهم والمنهج والعلائق. المغرب: أفريقيا الشرق، 2012.بالزقرطي إبراهيم موسى، أسس الأسماء الجغرافية، عمان: المركز الجغرافي الملكي الأردني، 1997. مرسوم رئاسي رقم 14-01 مؤرخ في 03 ربيع الأول عام 1435 هـ الموافق لـ 05 يناير سنة 2014. الجريدة الرسميّة: للجمهوريّة الجزائرية، العدد 01، 06 ربيع الأول عام 1438 هـ الموافق لـ 08 يناير سنة 2014.

سي بشير محمد، قضايا داخليّة للأمن: بين قيم الأمن وقيم المجتمع، في: بلهول نسيم (تحرير وإشراف)، فهم الأمن القومي الجزائري من مدخلي الأمن الوطني والدفاع الوطني، عمان، دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع، 2015.

باللغة الأجنبية:

ABOU Sélim, 2009, De l'identité et du sens, Beyrouth, les éditions Perrin et les presses de l'université Saint Joseph.

BENRAMDANE F., 2002, Histoire (s) et enjeu (x) d'une (re) dé/ dé/ dénomination : la Place rouge de Tiaret, *Insaniyet*, n° 17-18.

Déclaration Universelle de l'UNESCO sur la Diversité Culturelle, adopté par la 31é session de la Conférence Générale de l'UNESCO, Paris, 02 novembre 2001.

GUEDJIBA A., 2017, Usages toponymiques dans la ville de Batna : procédés et implications, *Timsal N tmazight*, n°08.

YERMECHE Ouardia, 2018, Onomastique et patrimoine immatériel en Algérie, *Les Cahiers du CRASC*.

الهوامش والإحالات:

[1]- Déclaration universelle de l'UNESCO sur la diversité culturelle, adopté par la 31é session de la Conférence Générale de l'UNESCO, Paris, 02 novembre 2001.

[2] –نبيلة بن عائشة، التنوع الثقافي والمواطنة، مجلة البحوث والدراسات العلمية، المجلد 15، العدد الأول، جانفي 2021، ص03.

[3] Sélim ABOU, 2009, De l'identité et du sens, Beyrouth, les éditions Perrin et les presses de l'université Saint Joseph.

[4]– محمد سي بشير، قضايا داخليّة للأمن: بين قيم الأمن وقيم المجتمع، في: بلهول نسيم (تحرير وإشراف)، فهم الأمن القومي الجزائري من مدخلي الأمن الوطني والدفاع الوطني، عمان، دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع، 2015، ص472.

[5]- Ouardia YERMECHE, 2018, Onomastique et patrimoine immatériel en Algérie, Les Cahiers du CRASC, p.p.86-87.

[6] –محمد البركة، وآخرون، مرجع سابق، ص.ص22-23.

[7]– المرجع نفسه، ص23.

[8] - O. YERMECHE, Op. Cit., p.87.

[9]- محمد آيت بود، الأعلام الجغرافيّة بالمغرب، ثاويزا، عدد 122، يونيو 2007، ص 19.

[10] – إبراهيم موسى الزقرطي، أسس الأسماء الجغرافية، (عمان: المركز الجغرافي الملكي الأردني، 1997)، ص07.

[11] – المرجع نفسه، ص.ص7-9.

[12] – محمد البركة، مرجع سابق، ص19.

[13]– المرجع نفسه، ص22.

[14] – إبراهيم موسى الزقرطي، مرجع سابق، ص.ص37-38.

[15] – محمد البركة، وآخرون، مرجع سابق، ص18.

[16] - Farid BENRAMDANE, Histoire (s) et enjeu (x) d'une (re) dé/ dé/ dénomination : la Place rouge de Tiaret, *Insaniyet*, n° 17-18, 2002, p.69.

[17] – مرسوم رئاسي رقم 14-01 مؤرخ في 03 ربيع الأول عام 1435 الموافق لـ 05 يناير سنة 2014. الجريدة الرسميّة للجمهوريّة الجزائرية، العدد 01، 08 يناير سنة 2014، ص06.

[18] – المرجع نفسه، ص4.

[19] - Abdenacer GUEDJIBA, Usages toponymiques dans la ville de Batna : procédés et implications, *Timsal N tmazight*, n°08, décembre 2017, p.96.